دراسات الأدب المعاصر، السنة الخامسة، خریف ۱۳۹۲، العدد التاسع عشر: صص ۳۱ - ۴۶

روایة فی الظلام لنجیب الکیلانی فی ضوء النقد

صفورا خدارحمی*

تاریخ الوصول: ۹۱/۷/۳
تاریخ القبول: ۹۲/۲/۱۰

الملخص

تعد الروایة فی العصر الراهن من أهم الأشکال والقوالب القصصیة وهی تصویر عن الحیاة الواقعیة للعصر الذی کتبت فیه و هی تجربة أدبیة، تصوّر بالنثر حیاة مجموعة من الشخصیات تتفاعل مجتمعه لتؤلف إطاراً عاماً متخیلاً قریباً ممّا یحدث فی الواقع الذی یعیش فیه الکاتب. أما النقد، فقد دخل فی معظم أمور الحیاة سواء فیما یتعلق بنقد الأشخاص أو الآراء أو الاتجاهات ودخل أیضاً فی النتاج الأدبی من مقالات وکتب وقصص وروایات للإشادة بما أضافته إلی الأدب وتصحیح ما جادت فیه فی حدود الأخلاق، لأنّ المقصود بالنقد إیضاح الحقیقة وتعدیل الخطأ. یحاول هذا المقال أن یقارب فترة زمنیة من حیاة مصر السیاسیة والاجتماعیة من التی تعدّ قصة کفاحیة عاطفیة حول فترة تاریخیة من حیاة مصر السیاسیة والإجتماعیة من خلال روایة «فی الظلام» التی تعدّ قصة کفاحیة عاطفیة حول فترة تاریخیة من حیاة مصر أی سنة ۱۹۴۷- ۱۹۵۲م. و قد کتبها *الکیلانی* فی زمن اعتقاله سنة ۱۹۵۷م.

الکلمات الدلیلیة: نجیب الکیلانی، الروایة، الشخصیات، السرد والحوار، الأسلوب، ثورة یولیو ۱۹۵۲م.

* خریجة ماجستیر من جامعة آزاد الإسلامیة فی کرج. **S.khodarahmi@yahoo.com**

المقدمة

إنَّ الأدب القصصی ذو مجال واسع جداً لعرض الأفكار بكافة أنواعها منها الفلسفية والسياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها، فی صورة موحية جداً، بحيث إن القارئ حين يقرأ لهذا النوع من الأدب لا يشعر بأیّ ملل وتعب؛ والأدب القصصی يشمل أنواعاً عديدة منها الرواية، والقصة، والأقصوصة، والقصة القصيرة و...، والرواية هی من الأعمال المميزة فی الأدب العربی المعاصر. فهناک الكثير من الكتّاب ظهروا فی مجال كتابة الرواية فی البلاد العربية، مثل *طه حسين*، و*جرجی زيدان*، و*محمود تيمور*، و*توفيق الحكيم*، و*محمد حسين هيكل*؛ وقد تأثرت الرواية العربية منذ نشأتها وتطورها بالرواية الغربية إذ إنّ العديد من مثقفی العرب كانوا يترددون إلى أوروبا وتأثر الكثير منهم بثقافة تلک البلدان فأقبلوا على كتابة القصة والرواية.

وكانت مصر رائدة فی كتابة القصة والرواية فی العالم العربی، وظهر كبار الروائيين فی هذا البلد منهم *نجيب الكيلانی*.

يعدّ *نجيب الكيلانی*(١٩٣١- ١٩٩٥م) من كبار الروائيين المعاصرين فی العالم العربی وله أعمال عديدة فی مجال القصة والرواية. تعدّ روايته «فی الظلام» قصةكفاحية عاطفية دارت أحداثها فی الفترة ما بين ١٩٤٧- ١٩٥٢م؛ وتثير عدداً من القضايا السياسية منها القيام ضد النظام الملكی واستقرار النظام الجمهوری فی مصر .وقد حاولت هذه الدراسة أن تقارن حياة مصر وفترة من حياة *نجيب الكيلانی* أی المرحلة الزمنية بين١٩٤٧- ١٩٥٢م مقاربة نقدية من خلال رواية «فی الظلام».

إن السبب الرئيسی لاختيار هذه الرواية للبحث هو أولاً إنَّ هذه الرواية لم تعرض لأی دراسة نقدية، ثانياً عنوانها المثير الذی استوقفنی لقراءتها غائصة فی أعماقها، ثمَّ جدّة الرواية وجمالها وبروزها من خلال تناولها قضية ثورة يوليو ١٩٥٢م كفكرة لها.

وكان المنهج فی إعداد هذا البحث، المنهج الاستقرائی التحليلی النقدی، بحيث تمت قراءة الرواية قراءة متفحصة مع التركيز على الجوانب التی تناولها خلال البحث.

التعريف بالمؤلف والاديب الاسلامى نجيب الكيلانى

ولد *نجيب الكيلانى* فى أول حزيران(يونيو) عام ١٩٣١م بقرية شرشابة من أسرة تعمل فى الزراعة فى الريف المصرى وفى سن الرابعة دخل مكتب تحفيظ القرآن، حيث تعلم القراءة والكتابة والحساب وقدراً من الأحاديث النبوية وسيرة الرسول(ص) وقصص الأنبياء وقصص القرآن(الكيلانى، ١٩٨٧م:، ج١: ٢٨)، ثمّ التحق بالمدرسة الأولية بقرية سنباط ثمّ انتقل إلى مدرسة الإرسالية الأمريكية الابتدائية بقرية سنباط التى تبعد عن قريته خمسة كيلومترات وفى هذه المدرسة تعلّم اللغة الإنجليزية، فاستطاع أن ينال شهادة المرحلة الابتدائية(المصدر نفسه: ٣٨)، ثمّ لمواصلة دراسته التحق بمدرسة «كشک الثانوية» بمدينة زفتى التى تقع على شاطئ نهر النيل ولكن لم تطل إقامته فى زفتى سوى فترةٍ لاتتجاوز شهرين(المصدر نفسه: ١٠٦- ١١١) وانتقل إلى مدرسة ثانوية بطنطا عاصمة محافظة الغربية(المصدر نفسه: ١١٠) وقضى *الكيلانى* هناک المرحلة الثانوية، ثم التحق بكلية القصر العينى (جامعة القاهرة) عام ١٩٥١، وفى السنة الرابعة بالكلية عندما سافر إلى قريته أواخر يوليو ١٩٥٥م اعتقل ونقل إلى القاهرة وقدّم هناک للمحاكمة فى إحدى القضايا السياسية وحكم عليه بالسجن عشر سنوات، وفى تلک الفترة جمع ديوانه الشعرى الأول «أغانى الغرباء» ثمّ انتقل إلى السجون المتعددة منها أسيوط وقضى أيام إدانته هناک، وفى سجن أسيوط بدأت المرحلة الثانية من حياته أى مرحلة كتابة الرواية(الكيلانى، ١٩٨٥م: ٢١)، وكتب هناک روايته الأولى «الطريق الطويل» وأيضاً روايته التاريخية الأولى «طلائع الفجر». فى هذه الفترة من حياته قد حازت آثاره المختلفة بجوائز فى المسابقات، منها:

روايته «الطريق الطويل» التى فازت بجائزة وزارة التربية ونشرتها وزارة الثقافة والإرشاد آنذاک وقدّمها له وزيرها المرحوم *فتحى رضوان*، وكتابه «إقبال الشاعر الثائر» فاز بجائزة التراجم والسير عام ١٩٥٧م(القاعود، ٢٠٠٧م: ٨٢).

وفى مجال الدراسات النفسية والاجتماعية فاز كتابه «المجتمع المريض»، وهو دراسة متميزة عن مجتمع السجون، وفى مجال الرواية فازت قصّة «فى الظلام» بجائزة وزارة التربية والتعليم، كما فاز بجائزة جريدة الشباب المسلمين، وأيضا فاز بجائزة المنتدى كتّاب الرواية والأدباء ونال بالمدالية الذهبية المهداة من *الدكتور طه حسين*. قضى

الكيلانى بثلاث ونصف من أيام إدانته، ثمّ انطلق من السجن وعاد إلى كلية الطبّ لإكمال دراساته، وبعد ذلک ترک مصر وذهب إلى أبو زعبل لمعالجة المعتقلين الذين كانوا يعملون هناک فى سكة الحديد(المقرى الإدريسى، ١٩٩٦م: ١١).

استمر الكيلانى فى كتابة الرواية فى الجامعة وفى أبوزعبل وفازت روايته «اليوم الموعود» بجائزة المجلس الأعلى للفن والأدب وتفوّق بأخذ الجائزة من يد جمال عبدالناصر(حسن عبدالله، ١٩٩٦: ٣٢). فى عام ١٩٦٥م قمعت حكومة جمال عبدالناصر حزب الإخوان المسلمين مرة أخرى وحبس أعضاءها ومنهم نجيب الكيلانى. واستمرّ *الكيلانى* نشاطه الأدبى فى السجن حتى أطلق منه بعد سنة ونصف و كان هذا الإطلاق، انتهاء أيام اعتقاله إلى الأبد.

عاد *الكيلانى* إلى وطنه بعد عشرين عاماً، فاستمرّ بنشاطه الأدبى بعد عودته إلى مصر ولكن مرضه صار سبباً للحدّ من نشاطه الأدبى. «أُصيب بسرطان الكبد، أُدخل المستشفى التخصصى بالرياض على حساب خادم الحرمين الشريفين، وفى الخامس من شوال ١٤١٥ق الموافق للسادس من آذار ١٩٩٥م، توفى الدكتور الأديب *نجيب الكيلانى* ودفن بمصر.

له ٤١ رواية و٧ مجموعات قصصية و٤ مسرحيات و٨ دواوين شعرية و٢٨ دراسة نقدية وأدبية، وترجم كثير من رواياته إل اللغات المختلفة.

رواية «فى الظلام» دراسة فى الشكل

أحداث الرواية

إنّ الحدث يعتبر العمود الفقرى فى الرواية، إذ الحدث يرسم حالات الشخصيات ومشاعرها وبتنوع الأحداث وتطورها يخوض القارئ فى قراءة الرواية؛ وبعد سرد الأحداث يبقى أثر تتركه القصّة فى نفس القارئ، وهذا الأثر هو العنصر السائد فى القصّة، وقد تكون السيادة للأحداث أو الشخصيات أو البيئة أو الفكرة. إذن يرتبط الحدث بالشخصية فى الأعمال القصصية ارتباط العلة بالمعلول وعلى هذا: «فإن الرواية تساوى الفعل(الحدث) علاوة على الفاعل(الشخصية)؛ الحدث إذن شىء هلامىٌ إل أن تشكله الشخصية - بحسب حركاتها- نحو مسار محدد يهدف إليه الكاتب»(وادى، ١٩٩٢: ٢٨).

فی هذه الروایة دارت الأحداث فی قریة شرشابة بمصر وتدور أیضاً أغلب أحداثها فیما بعد فی السجن الحربی، فی فترة ما بین ۱۹۴۷- ۱۹۵۲ م، فترة اهتزاز فی القیم واضطراب فی المفاهیم وارتباک فی شتی الشؤون السیاسیة والاجتماعیة والوجدانیة.

تبدأ القصة عندما عزم *فرید* وهو شخصیة الروایة الأصلیة علی الذهاب إلی القاهرة لالتحاقه بأصدقائه الذین کانوا یعملون علی إسقاط النظام الملکی وإقامة جمهوریة مصریة مستقلة. کان *فرید* من أهالی شرشابة، یدرس فی کلیة الحقوق بالقاهرة، أبوه *الحلوانی* یعمل فراشاً فی المدرسة الأولیة بالقریة منذ سنوات عدّة، وعرف خلالها بالأمانة والإخلاص فی عمله؛ أما أم فرید *حمیدة* فهی کانت تعمل فی بیوت المرفّهین وتغسل ملابس الناس.

فی بدایة الأمر واجه فرید مخالفة أمه لعزمه علی الذهاب إلی القاهرة، ولکنّه رغم مخالفة أمه کان لابدّ أن یذهب مع صدیقه عبدالمجید إلی القاهرة لأهمیّة الموضوع لکنّه قبل أن یذهب إلی القاهرة اضطرّ بأن یخطب *نهیرة* لنفسه لأسباب عدة، ثمّ ذهب *عبدالمجید* نفسه إلی القاهرة، وقررّ *فرید* فیما بعد أن یذهب إلی القاهرة وکانت أخته ریحانة معه، لیجد سریراً خالیاً فی القصر العینی وتتاح لها فرصة للعلاج، لأنّ أخته جزءً حساساً من جسمها کان قد أصیب بالسرطان؛ ثمّ تمرّض *فرید ریحانة* فی فراشها وانصرف إلی *الشیخ بسطویسی* وأصدقائه الآخرین الذین کانوا یعملون علی إسقاط النظام الملکی شارحاً لهم کلّ ما حدث له فی شرشابة.

مضی علی وجود *فرید الحلوانی* فی القاهرة أسبوع حتی التقی بالضابط فرحات الذی کان له العتاب العنیف واللوم الحاد علی غفلته وإهماله عن تکالیفه وتأخیره عن الحضور فی القاهرة فی الموعد المقرّر. فی الیوم الذی کان *فرحات* یتکلّم مع *فرید* فی بیت *بسطویسی* حول وظائفه الخاصة، دخل *عبدالمجید* إلیهما وکان علی غیر عادته مضطرباً مصفر الوجه وغاصت عیناه بالدموع، وقف *فرید* جامداً لمرآه، بینما تقدّم إلیه *فرحات* فی خطوات ثابتة، باحثاً عما حدث فی وجهه وأثار ارتباکه؛ فی البدایة ظنّ *فرحات* بأن *بسطویسی* لعله یکون قد قبض علیه، لأنه لم یعد من مهمته منذ الصباح؛ أما *عبدالمجید* فیخبره بأن أخت فرید *ریحانة* قد ماتت فی المشتشفی؛ مرّ نصف ساعة علی هذا الخبر المفجع، و*فرحات* و*عبدالمجید* و*فرید* جلسوا یدبرون أمر *راحلة* ویفکرون فی طریقة نقلها

إلى شرشابة، لكن هناک ضجة واضحة وخطوات متلاحقة سريعة تدبّ على السلم، ورغم ذلک فالثلاثة لا يهتمون كثيراً بما يسمعون، إنهم مستغرقون فی المصيبة التی حلّت بفريد؛ ففتح باب الشقة بعنف ودخل جنود إلى شقة *بسطويسی* لأن *بسطويسی* كان قد اعتقل. انفلت بعض الجنود هنا وهناک يفتشون الأثاث، ثمّ عثروا على بعض الأوراق الخاصة.

تم اعتقال *فرحات* و*بسطويسی* و*فريد* و*عبدالمجيد*؛ كان *فريد* يجلس فی جو السجن الكئيب فی شبه ذهول ويهمس فی حزن: «الحرية... الآن استطيع أن أهتف بها فی شوق وإلحاف وتقدير لحقيقتها»، إنه لم يستطع أن يتحمل السياط التی كانت تهوی على قدميه وعلى جسده، والمفاجآت التی واجهوه بها؛ إنها المؤامرة الكبرى التی سمّوها ضدّ الملكة. فی يوم ذهب *فريد* إلى مكان تحقيق، حينما وصل إلى حجرة التحقيق أحاطوا به المحققون، فوقف بينهم منكس الرأس، ممزق الثياب؛ ثمّ نظر أطراف الحجرة لعله يرى أحداً من زملائه، فوجد *بسطويسی* يقف فی أقصى الغرفة والدم يلوث ثيابه والعناد والإصرار يرتسم على وجهه وفی عينيه؛ أما *عبدالمجيد* فقد ارتمى أرضاً وقد ازداد شحوباً ونحولاً، ولكن فرحات لم يكن موجوداً هنا. أخذ المحققون يسألون فريد غير أنه لم يعترف بشیء، وعندما رأى *فريد* تعذيبات فوق طاقته، اعترف بكلّ ما سئل عنه فی أثناء التحقيق، بينما *بسطويسی* يسعى أن يمنعه عن هذا العمل، ثمّ فی السجن مات *عبدالمجيد* على أثر ارتفاع فی درجة حرارته وعلى أثر التعذيبات التی واجهها أثناء التحقيق.

فی النهاية تألفت لجنة قانونية للنظر فی القضايا السياسية وتقرير العفو عمن يستحق...، وأخيراً أطلقوا المسجونين السياسيين من السجن. كان *فريد* قد نسی ذكريات *نهيرة* التی كانت سبب جنونه ومشكلاته فی السجن وتركت فی قلبه جرحاً...، وأخيراً انطلق كل واحد من الأصدقاء إلى داره، مع خطواتهم المبتعدة وعواطفهم الجياشة، يحسون بشیء سحری غامض يجذبونهم ويجمعهم عند نقطة واحدة، إنها ذكريات الأيام القاسية الرهيبة وقصّة القيود العاتية التی أذابتها حرارة الإصرار والإيمان.

يلاحظ أنّ الأحداث تأتی فی الرواية على تسلسل منطقی، وتسلسل الأحداث بصورة منطقية تدلّ على وجود الحبكة الفنية للرواية، وفی هذه الرواية أثرت الأحداث تأثيراً

خاصاً على شخصيات القصّة خاصةً على *فريد* الشخصية الأصلية ومن هذه الأحداث: حادثة موت أخت فريد فى القصر العينى؛ حادثة اعتقال *فريد* وأصدقائه والحكم عليهم بالسجن لمدة عشر سنوات؛ حادثة موت *عبدالمجيد* فى السجن وفى إثر تعذيبات شديدة؛ حادثة طلاق *نهيرة* من *فريد* وزواجها من *عبدالرحمن أفندى*، وكانت هذه الحادثة قاسية على *فريد*.

شخصيات الرواية

شخصيات القصة «هم الذين يدور حولهم الأحداث، أو هم الذين يفعلون الأحداث ويؤدونها»(زغلول سلام، ١٩٧٣: ١٤). إذا أراد الكاتب أن يعبّر عن قضايا مجتمعه لابدّ له من استخدام شخصيات روائية، ويستمد الكاتب شخصياته من عدد من مصادر، ويتخذ هذه الشخصيات من البيئة التى يعيش فيها، أو «إنّه قد سمع بها ولم يرها، أو قرأ عنها فى صفحات الكتب والمجلات، وقد تكون متخيّلة لاتعيش إلاّ فى خيال الكاتب فحسب، وقد يستقيها الكاتب من شخصيته، بحيث تمثّل جانباً أو أكثر منها، وقد تعكس نظرته للحياة، ولابدّ للكاتب أن يشارک خياله فى رسم الشخصيات»(يوسف نجم، ١٩٧٩: ٧٥-٧٦).

إنّ هناک نوعين من الشخصيات نجدها فى جميع الروايات وهى: الشخصية الأساسية والشخصية الثانوية. أما الشخصية الأساسية أو الأصلية فهى محور لكل ما يقع فى القصّة من الأحداث، وهى أيضاً «الشخصية التى لاتبدو للقارئ فى الصفحات الأولى، بل تتكشف شيئاً فشيئاً، وتتطور بتطور القصّة وأحداثها وتنمو مع تغيير الأحداث، ويكون تطورها غالباً نتيجة تعاملها مع هذه الحوادث»(وادى، ١٩٩٢: ٢٧).

أما الشخصية الثانوية فهى وظيفتها إكمال الإطار القصصى وربط الأجزاء بعضها ببعض ومساعدة فى المواقف المختلفة. وللشخصيات الثانوية فائدة كبيرة فى نظر الكاتب والقارئ، ومما يسهل عمل الكاتب دون شک لأنّه يستطيع بلمسة واحدة أن يقيم بناء هذه الشخصية التى تخدم فكرته طوال القصّة، وهى لاتحتاج إل تقديم تفسير...، والقارئ يجد فى مثل هذه الشخصيات بعض أصدقائه ومعارفه الذين يقابلونهم كل يوم»(يوسف نجم، ١٩٧٩: ١٠١).

و من يقرأ رواية «فی الظلام» يتضح له مباشرة أنّ *فريد* هو الشخصية الأصلية فی الرواية، حيث أنّ الأحداث لها تدور حوله وهو محورها، لأن الرواية بدأت بفكرة رحيله إلى القاهرة لالتحاقه بأصدقائه الذين كانوا يعملون على إسقاط النظام الملكی.

أما الشخصيات الثانوية فی الرواية فكانت كثيرة كأم فريد وأبيه الذی كان يظهر تارة ثم يخفی؛ وشخصية *عبدالرحمن أفندی* الذی كان سبباً فی طلاق *نهيرة* من *فريد*. وكذلک شخصية *بسطويسی* الذی كان صديقاً *لفريد وعبدالمجيد*.

السرد والحوار

يعدّ السرد والحوار من أهم عناصر العمل القصصی، فی الحقيقة الحديث عن السرد والحوار يكون بمعنی الحديث عن الوعاء اللغوی الذی يحتوی على كل عناصر القصّة. إنّ هذا العنصر من عناصر الأسلوب القصصی خطير جداً وهو يحتوی على كل العناصر المهمة داخل الرواية من الأحداث والشخصيات والأمكنة والأزمنة فی إطار اللغة، لهذا «ينبغی أن يسير أسلوب السرد موازياً بدقة لمستوی حركة الحدث والمستوی الفكری للشخصية، لأنّ الكاتب ينوب فی السرد عن شخصياته، بعبارة أخری يصف بالنيابة عنهم ما يفعلون وما يدور حولهم »(وادی،١٩٩٢:٤٠). إذن للغة وللضمائر التی يستخدمها الروائی فی سرد الأحداث دور هام، وغالباً يستخدم الكاتب الضمائر بصيغةالمتكلم أو الغائب.

أما سرد الأحداث بصيغة ضمير الغائب فهو أفضل أسلوب عند أكثر الكتّاب ومنهم *نجيب الكيلانی*، وعند قراءة رواية «فی الظلام» يتضح لنا أنّ *الكيلانی* يستخدم عادة ضمير الغائب فی سرد أحداث روايته، كما يبدأ روايته بوصف حارة *فريد* ثمّ ينطلق منها الكاتب ويدخل إلى حوادث الرواية ويقدمها بأسلوبه الخاص.

والحوار هو ما يدور من الحديث بين الشخصيات فی القصّة أو المسرحية فهو حديث بين شخصية وشخصية، أو بين شخصيات وشخصيات أخری داخل العمل الروائی يكشف الكثير من الأحداث وأعماق الشخصيات، يبلور المواقف ويطرح التساؤلات والتصورات، ويجسد فی كل الأحوال وسائل الحركة والنموّ الروائی. وليؤدی الحوار دوره الوظيفی

بنجاح «يجب أن يندمج فی صلب القصّة، حتی لايظن القارئ أنه دخيل عليها، ويكون طبيعياً سلساً رشيقاً، مناسباً للشخصية وللموقف»(يوسف نجم، ١٩٧٩: ٩٧).

ومن خلال استقرائی لهذه الرواية، ظهر لی الحوار معبراً عن شخصية قائليه- من خلال حوار مع الغير- ودافعاً للأحداث ومصوراً للأفكار والمشاعر.

الزمان والمكان

«بيئة القصة هی حقيقتها الزمانية والمكانية، أی كل ما يتصل بوسطها الطبيعی، وبأخلاق الشخصيات وشمائلهم وأساليبهم فی الحياة»(يوسف نجم، ١٩٧٩: ١٠٨). إذن فبيئة القصة هی زمان وقوع الأحداث ومكانه، وتصور هذه البيئة الطبيعية وطريق حياة الشخصيات وأعمالهم وأخلاقياتهم، وأيضاً الزمان الذی يعيشون فيه.

الزمان

يعتبر الزمان عنصراً بنائياً هاماً فی جميع فنون القصص، فعليه تترتب عناصر التشويش والاستمرار وصيرورة الأحداث الروائية المتتابعة، ومن منظومة لغوية معينة تعتمد علی الترتب والتتابع والتواتر والدلالة الزمنية، بغية التعبير عن الواقع المعيش(مبروک، ١٩٩٨: ١٠).

فی رواية «فی الظلام» يتجلّی عنصر الزمن بصور متعددة وهذا الزمن محدود ومعاصرٌ للكاتب تقريباً، ويقول الكاتب نفسه فی مقدمة الرواية بأنّ أحداث هذه الرواية الكفاحية تتناول فترة زمنية ما بين ١٩٤٧- ١٩٥٢ م؛ وفی تصوير الزمن فيها، حين يعيّن الكاتب نقطة بداية القصّة، يمضی فی رسم أحداث الرواية من خلال الزمن بشكل تدريجی، كما أنّ حركة الزمن فيها يبدأ بذهاب *فريد* إلی القاهرة لالتحاقه بأصدقائه. الملاحظ فی الرواية أنّ الكاتب يستخدم لتصوير حركة الزمن عبارات تدلّ علی تقدم الزمن فيها، منها غروب الشمس وهو يصفه بصورة جميلة فی بداية الرواية وغداً وفی اليوم التالی ومن الثالثة بعد الظهر وهذا الأسبوع والليلة الماضية وعند الفجر والشهرين و ... .

المكان

المكان هو عنصر من عناصر البناء القصصی وله أهمية كبيرة فی القصّة، إذ هو «المحيط الذی الأحداث تجری فيه وتتحرک الشخصيات خلاله»(مريدن، ۱۹۸۰: ۲۸).

يختلف الروائيون فی رسم البيئة المكانية لرواياتهم، «منهم من يؤثر الوصف الدقيق مبرزاً أدق التفاصيل، من شوارع وبيوت وأزقة وأثاث وملابس، مما فی ذلک من الكشف عن حياة الشخصية الاجتماعية وبُعدها الفكری والثقافی، ومنهم من يذكرها ذكراً عابراً «لايهتمّ بخصائصها، ويكتفی بالوصف العام السريع»(يوسف نجم، ۱۹۷۹: ۹۱). و بالنسبة لوصف المكان فی كثير من الروايات، يتأرجح الكتّاب لقصصهم الأمكنة والأحياء الشعبية كقرية أو مدينة، كما نجد منها فی روايات *نجيب الكيلانی*.

لقد اختار *نجيب الكيلانی* فی رواية «فی الظلام» الأمكنة المختلفة لوقوع أحداث روايته، منها شرشابة والقاهرة والقصر العينی والسجن الحربی ومستشفی الأمراض العقلية؛ ولكن يلاحظ أنّ قسماً بيراً من أحداث رواية «فی الظلام» تجری فی القاهرة وفی السجن الحربی الذی اعتقلوا فيه أعضاء الحزب الذی كانوا يعملون ضد النظام الملكی.

دراسة فی المضمون

يعود اهتمام الانجليز بمصر إلی وقت مبكر جداً، عندما كانت الإنجليز سيدة بحار بلا منازع، وكانت تجارتها رائجة فی جنوب شرق آسيا والهند، وكانت طرقها التجارية تمرّ عبر الأراضی المصرية. وزاد اهتمام الإنجليز بالمنطقة أكثر بعد حفر قناة السويس.

وقد بدأت الانجليز بعد خروج الفرنسيين من مصر سنة ۱۸۰۱م، تخطط لاحتلال البلاد وساعدتها قضية الديون الأجنبية التی تورط فيها حكام مصر من أسرة *محمد علی*، علی تنفيذ خطتها تدريجياً حتی تمكنت أخيراً من بسط نفوذها علی المنطقة سنة ۱۸۸۲م.

وعند قيام الحرب العالمية الأولی، انتهزت الانجليز فرصة دخول تركيا الحرب ضدها فی نوفمبر ۱۹۱۴م، وأعلنت وضع مصر تحت حمايتها بتاريخ ۱۸ ديسمبر ۱۹۱۴م. وقد واجه الشعب المصری هذا الاحتلال بمختلف الأساليب ونشطت الحركة الوطنية التی تمثلت خاصة فی «الحزب الوطنی» الذی أسّسه *مصطفی كامل* سنة ۱۹۰۷ و«حزب

الوفد» مع صحوة الشعب فی ثورته الكبـری بزعامـة سـعد *زغلـول* سـنة ۱۹۱۸م(شـلبی، ۱۹۸۶: ۵۲۱). وقامت هذه الأحزاب بتعبئة الشعب المصـری ضـد الاحـتلال الانجليـزی، وتوجه هذا النشاط بقيام ثورة يوليو ۱۹۱۹م التی كانت تطالب بالاستقلال التام وبجـلاء الجيش الانجليزی(المصدر نفسه: ۳۹۶).

واستمرّ النضال حتی حصلت مصر علی اعتراف الانجليـز بإلغـاء انتـدابها علـی مصـر بموجب معاهدة ۱۹۳۶م.

كما تعتبر هذه المعاهدة نقطة تحول حاسمة فی تاريخ مصـر المعاصـر، كمـا كانـت بداية الانهيار السياسی الذی جعل قيام ثورة ۱۹۵۲ م حتمية تاريخية.

ثورة ۲۳ يوليو ۱۹۵۲ م، أسبابها وعواملها

عرفت هذه الثورة فی البداية بالحركة المباركة ثمّ أطلق عليها فيما بعد لفظ ثورة ۲۳ يولية. «كانت ثورة ۲۳تموز فی مصر عام ۱۹۵۲م تشكل منعطفاً تاريخياً لهذا البلد وفـی تاريخ الوطن العربی»(شعيب، ۲۰۰۵: ۲۷۳) ولقد كانت «اسـتجابة طبيعيـة لوجـود أزمـة اجتماعية سياسية حادة فی داخل مصر»(المصدر نفسه: ۲۷۵).

هناک عدة عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية، ساعدت علی قيام الثـورة المصـرية ۱۹۵۲، أهمها:

۱.استمرار الاحتلال الإنجليزی لمصر والتدخّل فی شؤون مصر الداخلية بعـد معاهـدة ۱۹۳۶م.

۲.هزيمة مصر فی حرب فلسطين عام ۱۹۴۸م وأثرها علی شعب مصر.

۳.استبداد وظلم الملک فاروق وفساد الحكم.

۴.سوء أوضاع مصر الاقتصادية والاجتماعية.

هذه الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت كافية لقيـام الثـورة ومواجهـة السيطرة الداخلية المستغلة من ناحية والسيطرة الخارجية المعتدية من ناحية أخری.

و بعد حرب ۱۹۴۸ و ضياع فلسطين فی ينـاير عـام ۱۹۵۰م، مجموعـة مـن ضـباط الجيش باسم الضباط الأحرار، اجتمعت لاختيار رئيس لهم، وتمّ اختيار الـرئيس جمـال عبدالناصر رئيساً بالإجماع، ثمّ قام بالثورة بزعامة *جمال عبدالناصر*.

قامت ثورة ۱۹۵۲ م على مبادئ ستة، فهى كانت عماد سياسية للثورة، وهى:

۱.القضاء على الإستعمار وأعوانه

۲.القضاء على الإقطاع وسيطرة رأس المال

۳.القضاء على الاحتكار

۴.إقامة عدالة اجتماعية سليمة

۵.إقامة جيش وطنى قوى

۶.إقامة حياة ديمقراطية سليمة(شلبى، ۱۹۸۶: ۳۴۳).

هذه المبادئ والأهداف الستة التى صاغها جمال *عبدالناصر* هى التى حددت معالم الطريق أمام ثورة يوليو، ووضعت الحلول للمشاكل القاسية التى كان يعانيها المجتمع المصرى عند قيام الثورة، وتنقل مصر من عهد الإقطاع والاستغلال إلى عهد تسوده المبادئ الإشتراكية ومبادئ الحرية والعدالة الاجتماعية، وبذلک كانت ثورة ۱۹۵۲م فى جوهرها وحقيقة أمرها ثورة سياسية اجتماعية.

يصوّر *الكيلانى* من خلال رواية «فى الظلام» أوضاع مصر قبل قيام ثورة، ويصوّر أيضاً مجموعة من الوطنيين الذين يعملون جاهدين لتغيير النظام الملكى وإقامة الجمهورية المصرية المستقلة.

ملك لشعب مصر

كان الملک الحاكم على مصر، ملكاً فاسداً مجنوناً يدوس أطهر المقدسات ويعبث بأسمى ويطأ أنبل العواطف، إنّه كان يبيع أمته ويسرق الزوجات وكان يحمى اللصوص والخونة والمرتشين. يصوّر لنا *الكيلانى* حياة هذا الملک من خلال حوار شخصيات روايته وتتجسّد رؤية الشعب المصرى تجاه الملک فى حوار جرت بين فريد *وعبدالمجيد*:

- حدث بالأمس أن رأيت صورة عابرة قد تكون تافهة، ولكنها يا عبدالمجيد قد لفتت نظرى إلى حقيقة هامة.
- ماذا حدث؟
- ثرثرة أطفال على شاطئ الترعة. أحدهم يقول: من منكم يستطيع أن يقفز هذه الترعة؟

- فردّ عليه آخر: مستحيل، ولا ملک.
- فردّ ثالث: الملک، إنه يستطيع أن يقفزها وبل أكبر منها.

ثمّ دار حديث بين الأطفال على نحو مختلط بلانظام أو منظـق، ممتزجـاً بصـريخهم وضحكهم:

- كم جنيهاً مرتب الملک يا أحمد؟
- مائة جنيه!
- ألف جنيه يا عبيط.
- إنه يأكل فی كل أكله خروفاً...، ولبس الملک جوخ وحرير...
- من يغلب؟؟ الملک أم ربنا؟
- من يغلب؟؟ الملک أم ربنا؟
- لا أعرف.
- ربنا لابدّ وأنه يغلب الملک يا عبيط(الكيلانی، ۱۹۵۷: ۱۸-۱۹).

الملاحظ كيف سيطر الوهم على عقول أجيال شعب مصر، إنّ منطق هولاء الأطفـال فی سذاجة وبساطة لهو الحقيقة بعينها، هم أبناء الشـعب الجـائع العـارى الـذى يؤلمـه الملک ويرهبه رهبة شديدة. نعم، كان شعب مصر آنذاک شعب مسكين، لايذكر الملـک إلاّ وذكر

معه الجوخ والحرير والأكلات الدسمة والسياف الذى يفصل الرقاب عن أجسادها.

مداهنة زعماء الاحزاب فی مصر

إنّ من المشاكل الهامة التی كان سبب طغيان الملک واستهاره فی أمور الـبلاد هـی استعمار واستقرار الانجليز فی مصر، وخاصة فی منطقة القنال دون أی مخالفة من ناحية زعماء الأحزاب، كما كان لهولاء الزعماء سياسة مداهنة أمام هذه القوات، إنهم كما يقـول الكاتب فی «فی الظلام» مـن لسـان أحـد شخصـياته يقبلـون الأحذيـة التـی تـركلهم، ويتمسحون باليد التی تصفعهم مادامت تنثر لهم الذهب، وتنعم عليهم بالسلطة الموهومة التی يعلمون بها الشعب كيف يألف الذل والهوان(المصدر نسه: ۶۹).

فقدان العدالة الاجتماعية

مسألة فقدان العدالة الاجتماعية فی مختلف شؤون حیاة شعب مصر هی من المضامین الهامة التی تبرز خلال الروایة، یمکن أن یری نموذج منها فی محاکمة *فرید* فی السجن بعد إنجاز عمله الممنوع، وهو کان یقضی عدّة أیام فی التأدیب انتظاراً للمحضر والعقاب الذی سیرد من الدیوان، أما أنه فکان قد ینسی أنّ کلمة قانون لا وجود لها إلاّ فیما یؤخذ منه، أما عندما یطالب بحق من الحقوق، فلا قانون ولا لائحة بل الجلد والضرب والإهانة البدنیة والنفسیة...، وهکذا جلدوه أثر من الاثنی عشرة جلدة التی حکم علیه المحضر.

الجهل بین الناس

کان واضحاً من خلال الروایة إنّ من أهم أمراض المتفشّیة بین الناس، فی تلک الفترة هی الجهل بالنسبة إلی الأمور والحوادث التی کانت تجری حولهم، *ونجیب الکیلانی* یصور هذا المضمون من خلال سرده فی الروایة وهی واضح فی حوار *فرید* و*بسطویسی*:

- أجل یا فرید، نحن نعیش فی الظلام، ویجب أن تکون هذه الحالة مدعاة إلی إصرارنا وتضحیاتنا حتی نحمل المشعل لشعبنا...، وعلی ضوء هذا المشعل سینظر الناس الحقیقة.

- أتعتقد أنّ هناک من یجهلون الحقیقة؟

- لا شک أنّ الجهل أخطر الأدواء فی بلدنا.

- یؤسفنی یا بسطویسی أن أقول لک إننا فی أمة میتة، تری الحق ثمّ تحید عنه دون استحیاء أو خجل، یسیرها الوعد والوعید.

- إنک تهذی ولا شک، کیف سولت لک نفسک أن تنطق بمثل هذا الکلام؟

- إنها المرارة التی نقاسیها فی شتی مرافق حیاتنا السیاسیة والاجتماعیة والاقتصادیة!

- إنی أومن معک بأنّ هذه المرارة مرض طارئ ولیست داء أصیلاً(المصدر نفسه: ۱۱۲).

هكذا كانت فترة ۱۹۴۷- ۱۹۵۲ م التی دارت فيها أحداث هذه القصة الكفاحية العاطفية، فترة اهتزاز فی القيم واضطراب فی المفاهيم وارتباک فی الشؤون السياسية والاجتماعية والوجدانية، ولكن الحقيقة الكبری هی إنّ الشعب المصری كان شعباً حيّاً وكان مُصرّاً على النصر، لهذا بدأ كفاحه على أساس واع فاهم لمشاكل، وأخذ يتلمس كل طريق، يلهث بحثاً عن النور ومن حياة أفضل وهو كان ناجحاً فی ذلک.

نتيجة البحث

لقد توصل هذا المقال من خلال أجزائه إلى نتائج أهمها ما يلی:

أ.قد عاش *نجيب الكيلانی* فی مجتمع مفعم بالأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لذلک فإنّ هذه الأحداث والقضايا دفعته إلى كتابة هذه الرواية وروايات أخرى، تنجم عن ظروف المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فی تلک الفترة الزمنية.

ب.إنّ المجتمع عند *الكيلانی* خلال سنوات عديدة كان مليئاً بالفساد والأمراض المختلفة، وظلم وطغيان النظام الملكی بدلاً من الطمأنينة والهدوء، والشعب فی ذلک الزمن يعانی من متاعب كثيرة لا حدود لها.

ج.كان *نجيب الكيلانی* فی تقديم بناء روايته «فی الظلام» ناجحاً، كما كان ناجحاً فی تقديم الشخصيات من البعد الداخلی والخارجی وتحديد الأماكن والأزمنة، وإنّه قدم روايته بلغة بسيطة وأسلوب فاخر.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

المصادر والمراجع

زغلول سلام، محمد. ۱۹۷۳م، **دراسات فی القصة العربیة الحدیثة**، الإسکندریة: دار المعارف.

زکی أحمد، صلاح. ۱۹۸۷، **مصر والمسألة الدیمقراطیة**، الطبعة الأولی، لبنان: مؤسسة المفید.

شلبی، أحمد. ۱۹۸۶م. **موسوعة التاریخ الاسلامی والحضارة الاسلامیة**، الطبعة السابعة، المجلد الخامس، القاهرة: مکتبة النهضة المصریة.

عبدالعزیز عمر، عمر. ۱۹۹۰م، **دراسات فی تاریخ العرب الحدیث والمعاصر**، بیروت: دار النهضة العربیة.

علوش، سعید. لا تا، **معجم مصطلحات الأدبیة المعاصرة**، الطبعة الأولی، بیروت: دار الفکر اللبنانی.

علی، عبدالمنعم. ۲۰۰۵، **التدخل الأجنبی وأزمات الحکم فی تاریخ العرب الحدیث والمعاصر**، الطبعة الاولی، بیروت:دار الفارابی.

الکیلانی، نجیب. ۱۹۸۵م، **رحلتی مع الأدب الاسلامی**، الطبعة الاولی، بیروت: مؤسسة الرسالة.

۱۹۵۷م، **فی الظلام**، الطبعة الاولی، بیروت: مؤسسة الرسالة.

۱۹۸۷م، **لمحات من حیاتی**، ج۱و۲، لا ط. بیروت: مؤسسة الرسالة.

مبروک، عبدالرحمن. ۱۹۹۸م، **بناء الزمن فی الروایة المعاصرة**، لا ط، القاهرة: الهیئة المصریة العامة للکتاب.

مریدن، عزیزة. ۱۹۸۰م، **القصة والروایة**، لا ط، دمشق: دار الفکر.

وادی، طه. ۱۹۹۲م، **دراسات فی نقد الروایة**، الطبعة الثالثة، القاهرة: دار المعارف.

یوسف، نجم. ۱۹۷۹م، **فن القصة**، الطبعة السابعة، بیروت: دار الثقافة.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی